



الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية

هل ثمة دور للتواريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

د.عزيزة بدر محمد

أستاذة فلسفة العلوم المساعد

كلية البنات - جامعة عين شمس

الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية

هل ثمة دور للتواريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟

تقدمة

تحاول تلك الورقة مقارنة الإبستمولوجيا فى تواجدها بالتواريخ بعد الإستعمارية، وتساءل هل ثمة دور للتواريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا ؟ ويهمنى أن نُؤهِ هنا إلى أن الإبستمولوجيا فى تواجدها بالتواريخ بعد الاستعمارية، تحاول أن تشق طريقاً فيما بين الإبستمولوجيات وفلسفات العلم السائدة فى الغرب، وبين إبستمولوجيات أخرى، وذلك بغية تقديم تفسير لتاريخ إنتاج المعارف فى أوربا ، وفى أى مكان آخر تكشف عنه التواريخ بعد الإستعمارية ، وكذا تحديد نظرية المعرفة التى من شأنها أن تفسر ذلك النمط من التاريخ ، وأعنى به تاريخ ظهور وإزدهار وكذا ذبول النماذج والتقاليد الثقافية المعرفية^(١).

ولنا أن نلفت إلى أن ثمة دراسات إثنوجرافية راحت تقارب التقاليد العلمية والتكنولوجية غير الأوروبية، وياتت تحث على النظر إلى الأنساق المعرفية برمتها على أساس من التكافؤ الإبستمولوجى. وهذا يعنى ألا نلتفت إلى الاختلافات الإبستمولوجية المألوفة فيما بين الأنساق المعرفية الصحيحة وبين أنساق الإعتقادات، بيد أن التواريخ بعد الإستعمارية لا تنكر أن بعض أنساق الإعتقادات كانت أقوى من غيرها ، لكن ماتنكره هو أن تلك القوة تكمن فى السمات الإبستمولوجية الداخلية الخالصة فحسب، أعنى تلك المتمثلة فى عقلانية راسخة، ومنطق وحيد للتبرير، والمنهج، والموضوعية. وهو الاعتقاد الذى أسهمت فى التأسيس له التقارير التاريخية الداخلية والتاريخ الداخلى للعلم...

لقد افترضت تلك التقارير التاريخية الداخلية والتاريخ الداخلى للعلم أن نجاح وتطور العلم يتحقق عبر سمات إبستمولوجية داخلية خالصة، تتمثل فى المنهج التجريبي وأللمنهج العلمى بعامة وكذا معايير الموضوعية والعقلانية ، وتلك السمات الداخلية من شأنها وحدها أن تحقق تكامل وانسجام ووحدة العلم..

وعلى العكس، تنكر تقارير التاريخ الخارجى أوالتاريخ الإجتماعى للعلم أن تكون بذور التطور العلمى والتكنولوجى، كامنة فى ثنايا عقول العلماء وإجراءاتهم البحثية فحسب، وهوماتزعمه التواريخ الداخلية، حيث تؤشر تلك التقارير الخارجية على أن

الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتواريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

السياقات الثقافية والنظام الإجتماعى ينفذان بعمق داخل المحتوى المعرفى، ومن ثم تفسح القيم الإجتماعية والثقافية المجال للتعددية الثقافية والأنساق المعرفية المحلية.

لقد أسهمت الإبستمولوجيا بعد الإستعمارية فى خلق مفهوم التعددية الثقافية، وكذا تحدى كونية العلم الغربى ومركزية الثقافة الغربية، وذلك دفاعا عن الأنساق المعرفية المحلية، وعن الخصوصية الثقافية للثقافات الأخرى المغايرة للثقافة الغربية، حيث تتغيا خلخلة المركز أوالمركزية الغربية كى تتقدم الهوامش والأطراف .

وعل هذا، نحن بحاجة إلى منظور تاريخى جديد للعلم، وهوالمنظور الحضارى.

نحن بحاجة إلى منظور حضارى **civilizational perspective** يسهم فى تقديم رؤية بعد - تاريخية **meta historical** بشأن طبيعة العلم. هذا المنظور يُظهر العلم الغربى المائل الآن بوصفه " علما حضاريا " **civilizational science** أسهمت فى تأسيسه شروط اجتماعية وشروط أخرى، ما من شأنه أن يدفعنا إلى التقصى والتنقيب واكتشاف حضارات اخرى للعلم^(٢).

وثمة محاور حاولت غيرها مقارنة الإبستمولوجيا فى تواشجها بالتواريخ بعد الإستعمارية وهى:

- جذور العلم

هل حدث العلم مرة واحدة ؟

- الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية

الشروط السوسيوثقافية تُشكّل مسار العلم

- الإستعارة .. تلك الأم الحبلى

- جذور العلم ...

هل حدث العلم مرة واحدة؟ ...

ليس ثمة شك فى أنه ما من مجتمع انسانى إلا وقد قدم تقاليد فيما يخص الفن، والموسيقى، والأدب، والدين، والسياسة وما إلى ذلك. وما من مجتمع انسانى إلا ولاحظ العالم الطبيعى وأنتج تعميمات (قوانين) إتسمت بالدقة فى أحيان كثر.

بيد أنه في رقعة بعينها فقط - أوربا الغربية - (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا) . وفي حقبة بعينها ، منذ القرن السادس عشر، ظهر العلم الحديث : علم الفيزياء الرياضية، والتركيب الذري للمادة، والكيمياء الحيوية.. الخ^(٣).

فهل حقاً حدث العلم مرة واحدة؟

راحت تواريخ العلم بعد - الإستعمارية تقارب قضية جذور العلم، وتتبع دراسات تاريخية وإثنوجرافية معاصرة التقاليد العلمية والتكنولوجية الماثلة داخل الثقافات غير الغربية، وطرحت عدة تساؤلات كان من بينها ، لم انبثق العلم الحديث في أوربا؟ وهل انبثقت الثورة العلمية الأوربية كجزء من المعجزة الاوربية خارج العصور المظلمة؟

تلك المصطلحات الخمسة : أوربية، علمية، ثورة، معجزة، وعصور مظلمة - هي الآن مصطلحات خلافية، وذلك لأن الدراسات التاريخية التي قاربت القروسطية الأوربية وإنجازاتها العلمية والتكنولوجية تُظهر أن التأريخ للعصور المظلمة يُخبر، ويُعبّر عن رؤية ورأى المؤرخ، لا عن واقع القرون الوسطي في أوربا. فليس ثمة معجزة أوربية أو ثورة علمية، ماحدث ليس سوى تطور تدرجي بدأ في القرن الحادي عشر. وقد جاءت العناصر الدافعة لتطور العلم الحديث نتيجة لتحولات سياسية واقتصادية واجتماعية تدرجية. هذا فضلا عن الحضور الضخم للثقافة الإسلامية في القرون الوسطي وبدايات أوربا الحديثة، وكذا الإقتباس من الفكر المصرى وعناصر أخرى غير- أوربية ، حتى أواخر عصر النهضة التي نسميها الآن أوربية، وإنه لمن الخداع اعتبار العلم الحديث أوروبيا.

إذ لم تكن جذور وبدايات العلم الحديث تشبه العلم الحديث الذى نراه الآن، بأسسه الامبريقية الراسخة ، كما في علم الفلك وغيره من العلوم.

وعلى هذا ألفينا بعد - الكونية post kuhnian وبعد الإستعمارية تعيد صوغ جذور العلم الحديث، وتنظر بعين الإعتبار للأنساق المعرفية المحلية local knowledge system، وعبر تلك التحليلات استبان أنه ليس ثمة عنصر في العلم مستثنى من التشكل الثقافي ، وحتى فيزياء أواخر القرن العشرين ليست مستسناة من ذاك التشكل. وكل عنصر من عناصر العلم يطرح نتائج إستمولوجية خاصة به^(٤)

ولنا أن نلفت ها هنا إلى " شرودنجر " أحد أعظم علماء الفيزياء النظرية، والذي نوه إلى أن العلم الغربي قد تأسس علي نظريات ومعطيات سابقة عليه.
ومن ثم ، إذا ماتتبعنا حلقات التطور العلمي إلى البدايات الأولى، سوف نقف على المحاولة الأولى للوعي، وعي الإنسان البدائي ومحاولته تشكيل صيغة عقلية منطقية للوقائع الملحوظة في العالم من حوله.
بدايات العلم، إذاً، ووفقاً لشرودنجر كانت - دون أدنى شك - ضرورة انثرومورفية "Anthromorphic necessity" مصاحبة لتشكيل وعي الإنسان وكفاحه من أجل البقاء.^(٥)

وهذا يعنى أن بدايات العلم كانت مصاحبة لبدايات الحياة نفسها، وضرورة لوجود الإنسان وبقائه.

وإذا كان التاريخ التقليدي للمشروع العلمي يبدأ باليونان ؛ فإنه عند تفحص الافتراضات الأساس للعلم الحديث، وبالنظر إلى الضرورة الأنثرومورفية المصاحبة لتشكيل الوعي، ومحاولة فهم الواقع والحقائق الفيزيائية، سنلمس أنها ليست محصورة في اليونان، ولا مقصورة علي اليونان الأوائل.

حيث طرحت علي مائدة البحث الانثروبولوجي عددا كبيرا من البدايات الأولى للمسارات العلمية في أماكن عديدة من العالم، وتبين أن التراث اليوناني الضخم كانت قد أسهمت في تكوينه إسهامات مختلفة من خارج اليونان وبخاصة من افريقيا واسيا.^(٦)
وكذا تؤشر البحوث التاريخية الحالية على أن فكرة اعتبار اليونان بداية استثنائية للحضارة الإنسانية كانت قد تأسست فقط في القرن التاسع عشر.

هذا فضلا عن أن بعض إسهامات اليونان في المعرفة الغربية كانت - في الحقيقة - معروفة لدي حضارات أخرى معاصرة للحضارة اليونانية، هذا إن لم تكن تسبقها. ومن المؤكد أنه قد حدث إنتقال للأفكار فيما بين المناطق المختلفة في العالم القديم.

وقد أسفر القيام بمراجعة وتنقيح تلك الأفكار عن وجود جذور افريقية قوية للعلم داخل الحضارة اليونانية. وانتقلت تلك الرؤية إلى تاريخ العلم لتغير المعرفة السائدة الراسخة، التي تؤسس للمركزية الاوربية بشأن العلم. وبات من المؤكد ان فكرة جعل اليونان المصدر الأساس للمعرفة الغربية قد تشكلت اجتماعيا في اوربا في القرن التاسع عشر.

أما الدليل علي أن الحضارة اليونانية لها جذور افريقية فهو هيرودوت نفسه، الأب الروحي للتاريخ اليوناني ، والذي أقر بأنه مدين لمصر بدين كبير. هذا فضلا عن أن التراث الحضاري المصري راح ينتقل إلى أوربا عبر القرون وبلا انقطاع، من اليونان القدماء إلى الرومان، وفي عصر النهضة والروزيكروشي Rosicrucian's في القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر. وقد وفرت تلك الصورة نقطة انطلاق نحو التحرر من التحيز العرقي لمركزية النموذج اليوناني.^(٧)

ويهمنا أن نلفت هنا إلى أن مركزية النموذج اليوناني كانت قد اختلقت في القرن التاسع عشر، وراحت تتعمق مع بدايات العنصرية والإمبريالية الأوروبية. لقد كان التحيز العنصري تجاه اليونان مفرطاً، حيث كان ينظر إليها بوصفها عنصراً نقياً خالصاً لأوربا، وكذا بوصفها تجسيدا لمرحلة طفولة أوربا ، أي البداية العرقية النقية الخالصة لأوربا وللحضارة الأوروبية^(٨).

ومع بدايات الإمبراطوريات الإستعمارية وانتشار العبودية، غدت حقيقة أن الأفارقة ذوى البشرة السوداء هم المؤسسون الحقيقيون للحضارة اليونانية، حقيقة مناقضة للإبداع والحضارة.

ولنا أن نورد هنا إحدى بدايات التطور العلمي الثوري ، والتي نقلت الإنسانية على نحو عام، والأفارقة علي وجه الخصوص، إلي نظام اجتماعي جديد وأعني به (المدنية)، وهذا التطور العلمي الثوري هو صهر الحديد في زيمبابوي، وقد حدث ذلك منذ أربعين ألف سنة علي الأقل^(٩).

وفي الحقيقة، ليس ثمة تنمية أوتطور اجتماعي دونما تطور علمي وتكنولوجي. وهذا الإنجاز العلمي والتكنولوجي - وأعني به صهر الحديد - لم يكن ليحدث دون إنجازات علمية أخرى في مجال الزراعة، وهذا يؤشر علي أن الزراعة كانت ضرورية للانتقال من البداوة إلى المجتمع المدني.

الزراعة وصهر الحديد في زيمبابوي القديمة يؤكدان أن الأفكار العلمية والتكنولوجية، قد انتقلت من جنوب أفريقيا إلى شمال أفريقيا، وبعد ذلك إلى أوربا. وهذا من شأنه أن يدحض مزاعم المؤرخين العنصريين أمثال أرنولد توينبي ، الذي وصف مصر بأنها أمة بيضاء، أما باقي أفريقيا فهم مجرد همجيون.

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتواريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

لقد أسهم التأريخ الانعزالي أوالتاريخ المجتزأ الداعم للمركزية الاوربية ، فى صنع حواجز نفسية أمام السود تجاه فهم وممارسة العلم، حيث كافح السود، أوكان عليهم أن يكافحوا ضد اثنين على الأقل من الحواجز النفسية :

- العلم بوصفه مقدسًا متعالياً وغامضًا.

- العلم بوصفه ليس أسودًا Non - Black، أى وقفاً على البيض. وذلك

بالمعنى الاجتماعى التاريخي socio - historical

ولذا فإن أحد الشروط الرئيسة المسهمة فى قهر تلك الحواجز النفسية، أن نضع العلم فى سياقه التاريخي الصحيح والحقيقي^(١٠).

وعلى هذا، عند تتبع الجذور الثقافية للحضارة اليونانية، وبالعودة إلى السياق التاريخي، وتتبع الجذور الثقافية للحضارات السابقة على الحضارة اليونانية فى مصر وسومر، سنلمس أن الافكار قد انتقلت من تلك الحضارات السابقة على الحضارة اليونانية وساعدت اليونان.

إذ يكشف البحث التاريخي المقارن، الذى قارب تقاليد علمية متغايرة متزامنة، أنه ينبغى إعادة النظر فى مايسمى بأسبقية الحضارة اليونانية، وبذا تغدوالطبيعة الإستثنائية للتراث اليونانى مسألة خلافية^(١١).

وثمة مايدعوهنا إلى أن نلفت إلى أنه فى تلك الأثناء، راح يلوح فى الأفق مايعرف بـ " نظرية نظام العالم " world system s theory : أوالقلب والاطراف ، فإذا كان التوسع الأوربي- وخاصة رحلات الكشوف البحرية- قد أسهم فى التأثير على تاريخ كل من الأوربيين وغير الأوربيين، وكذا على التقاليد العلمية والتكنولوجية لكل منهما. ألفينا تلك الحقيقة قد توارت- نسبياً - من الوعي الأوربي، وتوارت الافتراضات التى تؤشر على أن التطور الصناعى فى أوربا تأسس على المشروعات الاستعمارية، والتى كانت مشروعة فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

وفى عامى ١٩٣٠ و ١٩٤٠ راح بعض الباحثين يكشفون عن أن التوسع الأوربي قد مكن للنهضة الصناعية فى أوربا وشرع فى إعادة تشكيل الثقافات التى استعمرتها أوربا.

ولنا أن ننوه إلى الهند، على سبيل المثال، حيث تجارة الرقيق التى أسهمت على نحوحاسم فى التصنيع البريطانى والفرنسى، وكذا تم تطبيق الرؤية الماركسية المنظمة

للعلاقة بين الطبقة البرجوازية والطبقة العاملة على التنظيمات العمالية العولمية. وباتت الأمم الأوروبية قادرة على الهيمنة عبر مشروعات التوسع الخارجي^(١٢).

وقد تأكد هذا في عام ١٩٦٠ و ١٩٧٠ عبر المناقشات القوية داخل إحدى تيارات تاريخ العلم والتكنولوجيا الغربي، واستبان العلاقة القوية فيما بين الإمبريالية الأوروبية وازدهار العلم والتكنولوجيا في اوربا.

وها هنا، وفي تلك الأثناء بدأ الإنهماك يتحرك في إتجاه آخر، ألا وهو الترويج لنظرية نظام العالم *World System's theory*، وذلك سيرا على نهج المؤرخين الإستعماريين، وتسويغا لفكرة أن تنمية وتطوير اوربا هي في الوقت ذاته تنمية وتطوير لباقي العالم.

وفي أواخر عام ١٩٦٠ واول عام ١٩٧٠، طُرح مفهوم الحواضر والتابعين *Metropolis - satellites*، وكذا مفهوم القلب والأطراف *Core - periphery*، بوصفهما تبريرا للتقارير التاريخية المناهضة للتاريخ العولمي^(١٣).

وكشفت البحوث التاريخية عن أن مصطلح الدول النامية *Underdevelopment* المعاصر هو إعادة انتاج للماضي واستمرار للتبعية الاقتصادية، فيما بين عالم نام تابع وحواضر متقدمة.

تلك العلاقة - الحواضر والتابعين والقلب والأطراف - كامنة بعمق في بنية النظام الرأسمالي، وقد تم بسطها وفرضها على العالم؛ فكل مجتمع هو جزء من النظام الرأسمالي^(١٤).

ولنا أن نوثر هاهنا على أن الرأسمالية بوصفها معيارا - للعالم - قد غدت مهمة ومحورية لأوربا، حيث مكنت النزعة الإستعمارية الأوربيين من تنمية وتطوير مجتمعاتهم، وحالت دون أن تحدث التنمية في أي مكان آخر.

تلك هي دينامية التنمية والتخلف التي تحكم عالمنا الحديث^(١٥).

وقد بات من اليسير رصد تبعية العالم الثالث في علاقتها بالتكنولوجيا، فحين النظر إلى العلم والتكنولوجيا داخل مجتمعات العالم الثالث، سنلمس عمليتين متناقضتين وهما، تحرير من ناحية وقهر من ناحية أخرى.

- تحرير: حيث حرر العلم تلك المجتمعات من الأمراض القاتلة.

الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتواريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

- قهر : حيث إبتدع الرأسماليون الأوروبيون والأمريكيون ميكانيزمًا ماهرًا رقيقًا ومخادعًا تحت ستار تقدم و"تنمية".

وعلى هذا، يبدوالعلم ضبابيا، فبينما يسهم فى حل المشكلات الملحة، إذ به يسهم فى تضخم تلك المشكلات. حيث يُخفى الجذور الاجتماعية للمشكلات التقنية ، ويحجب الوجه الإستعماري للعلم. فالنفع الذى يقدمه العلم المعاصر مُغلف بحاجات المستعمر، المواد الخام، وأسواق جديدة ومستهلكين ومالى ذلك.

ومن ثم، نخلص إلى أن تجاهل التاريخ يسوغ العالم الثالث، حيث تسوغ ايد يولوجيا الحضارة الغربية الوضع الحالي فى العالم الثالث، والطريق إلى تسويغ العالم الثالث - طبقاً لايدولوجيا الحضارة الغربية - يبدأ بتجاهل التاريخ.

تجاهل التاريخ ignoring history - إذا - هوالمسوغ الحالي للعالم الثالث، ويذا يغدوالعالم منحة إلهيه تمنح لبعض الأمم كي تكون اكثر تقدماً من الأخريات. والحق أنه ليس ثمة سبب يدعو إلى أن يكون هناك عالم ثالث، هذا ليس حقيقيا وكذا منافيا للسياق التاريخي.

- الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية

الشروط السوسيوثقافية تُشكل مسار العلم

ثمة تساؤل يتبدى هاهنا :

ثرى هل ثمة علاقة فيما بين الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية؟

ولنا أن نلفت - بداءة- إلى أن التواريخ بعد الإستعمارية جزء من التواريخ العولمية المستجدة المناهضة للمركزية الاوربية. ولذا فقد قامت تواريخ وفلسفات العلم بعد الإستعمارية بنقد فلسفة العلم التنويرية، وطرح فلسفات العلم بعد- التنويرية^(١٦) وقد راحت فلسفة العلم التنويرية تقدم العلم الغربي بوصفه مثال الكونية universality، وراح التنوير الفرنسي يقدم حقبة الحداثة بوصفها حقبة التفوق والتميز فى تاريخ الإنسانية.

وغدا هذا الفهم مألوفاً، حيث منح الأجيال المتعاقبة الحق فى أن يشعروا أنهم يتمتعون بمنزلة استثنائية، وتفوق استثنائي. وانتقل هذا الشعور بالتفوق من محض تفوق

للحاضر علي الماضي إلى احساس بالتفوق علي المجتمعات والثقافات الأخرى قبل الحداثية، أي تلك التي لم تعایش الحداثة.^(١٧)

وحدث ائتلاف فيما بين أطروحات وحدة العلم، ومزاعم التنوير بشأن كونية افتراضات العلم الحديث وكونية المنهج العلمي الغربي.

حدث هذا الائتلاف في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وظل قوياً حتى اليوم.

إذ تحتم مزاعم التنوير ضرورة أن يتم إنتاج المعرفة، وكذا صياغة القوانين والحقوق وفقاً لمفاهيم كونية للحقيقة والعدالة. وكانت المهمة الإستعمارية هي التوسع ويسط النفوذ علي الأماكن والبقاع التي لم يصل إليها التنوير أو غير المستنيرة Unenlightened، وجاء ظهور العلم الوضعي - الإمبريقي في أوج السلطة الإستعمارية يدعم ذلك النموذج.^(١٨)

وامتد التزام كونية العلوم الطبيعية، وكونية العلم والمنهج العلمي الغربي، إلى حد اعتبار المعارف المحلية محض خرافات، وقد توشج ذلك بمفهوم وحدة العلم.

وفي الحقيقة، ينبغي الاقتناع بأن الحقائق المحلية، لا مجرد الحقائق الخاصة بالعلوم الطبيعية، بل جل أنماط الحقائق المحلية، تؤسس مصداقية تمتد خلف الحدود والتخوم المحلية.

فمن ينتقدون النسبية ثقافياً ومعرفياً، يجادلون حول أهمية وامتياز النسبية بدافع اعتقاد أنه من الممكن تشكيل العالم وفقاً لإرادتهم، وذلك بتجاوز الحدود المادية.^(١٩)

وتزعم أطروحات وحدة العلم أن ثمة عالماً واحداً، وحقيقة واحدة بشأن ذاك العالم وعلماً واحداً فحسب مؤهلاً لحيازة تلك الحقيقة، وذلك العلم هو العلم الحديث.

وقد أفضى ذلك إلى افتراض ضمنى مؤداه ان ثمة "فئة" واحدة من البشر مؤهلة لصياغة هذا العلم وإدراك تلك الحقيقة - هم الخبراء وأهل العلم.^(٢٠)

ولذا راحت دراسات العلم بعد - الإستعمارية وبعد - الكونية تقوض افتراضات ومزاعم وحدة العلم، فافتراض "الحقيقة الواحدة"، يستدعي صيغاً وشكولاً شتى من الاختزالية التي هي غير واقعية.

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتاريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ —

وافترض "العلم الواحد" هوبلا معنى حتى فى العلم الحديث، وذلك فى ضوء تلك الوفرة من الفروع العلمية، فثمة حقول بحثية متخصصة لها مناهجها المتميزة ومصادرها المتنوعة.

وهكذا تتحدى دراسات العلم بعد الاستعمارية كونية مفاهيم التنوير فيما يخص الطبيعة الإنسانية والعقل والحقيقة، وكذا تتحدى ثنائيات العقل/الجسم، والطبيعة/الثقافة، والمعرفة/الخرافة، تلك الثنائيات التى شيدت مفاهيم الحداثة الخاصة بالعقلانية والعلم^(٢١). وتحدث الدراسات بعد الإستعمارية وبعد الكونية ودراسات العلم النسوية الغربية فلسفات العلم الداخلية التى تُقدم التطور العلمى الغربى بوصفه عقلانياً، وهذا يعنى أن نجاح وتقدم العلوم الأوربية الحديثة يُعزى إلى ملامح وخصائص إبستمولوجية داخلية. ورصدت التاريخ والدراسات بعدالإستعمارية العلاقة بين التقدم العلمى والتكنولوجى فى أوربا، وبين الاقتصاد والمشاريع السياسية والاجتماعية للتوسع الأوربى منذ عام ١٤٩٢ حتى أواخر القرن العشرين.

إذ العلاقة بين هذين المشروعين الكبيرين: انبثاق العلم الحديث فى أوربا، والتوسع الأوربى متواشجة وثيقة، حيث وفر التوسع الأوربى مصادر معرفية قوية ومهمة، وكذا مصادر إقتصادية وسياسية. هذا فضلاً عن التبادل الثقافى فيما بين أوربا وثقافات متغايرة حول العالم، حيث يمكن القول أن نمووتطور العلم الحديث فى أوربا، إنما يعزى إلى نجاح السياسات التوسعية الأوربية القائمة على السلب والنهب^(٢٢).

وإذا كانت فلسفات العلم التنويرية قد قامت بإقصاءالمعارف المحلية من الممارسات العلمية. فقد راحت فلسفات العلم بعد التنويرية المستجدة تطرح تساؤلات بشأن المعارف المحلية وكيف ترتحل تلك المعارف؟ ولإن الثقافات هى صندوق الأدوات أو صندوق العُدة box s'tall لنموالمعرفة، فما المكسب وما الخسارة حين يحدث ذلك الإرتحال؟ إذ تهتم الفلسفات بعد التنويرية المستجدة بمشروعات عولمية، لكن ليس بتحقيق مفهوم الكونية.

حيث تزعم فلسفة العلم بعد التنويرية أن :

- العلم الحديث محض نسق معرفى محلي.

- العلم الحديث مكون من عدة انساق معرفية محلية التقت معاً عبر أساليب

براجماتية، لكنها ليست أساليب منسجمة ملتزمة بالضرورة .

وهنا يغدوالتحدي، لا أن نرد تلك التعددية إلى وحدة واحدة، بل إن التحدي هوأن نفهم كيف ترتحل المعارف المحلية من ثقافة إلى أخرى؟ وكيف تلتئم عناصر معرفية قادمة من سياقات إنتاج متغايرة، ويعاد بناؤها على نحويسهم في إنتاج معرفة جديدة؟ وكيف يمكن للأعضاء المشتغلين بحقول معرفية تتعارض من حيث الحدود العلمية الأساس، أن تعمل معا بشكل نشط؟

وما المكسب وما الخسارة عند نزع عنصر معرفي من سياق ثقافي ما، وحقته داخل نسق ثقافي آخر بعيد في الزمان والمكان، كما حدث علي سبيل المثال عند نقل الوخز بالإبر داخل الطب الحيوي الحديث Biomedicine^(٢٣).

تناهض فلسفات العلم بعد التنويرية اعتبار العلم الغربي مثال الكونية، وذلك لأن اعتبار العلم والمنهج العلمي الغربي مثال الكونية، يفضى إلى خلل على المستويين العلمي والإبستمولوجي، وذلك لأسباب كُثر هي :

- يجيز الإحتكام إلى علم واحد موحد Monolithic بُغية تدعيم مزاعم علمية فردية بطريقة غير ملائمة.

- يجيز مقاومة النقد القيم الذي لا يتوافق مع الرؤى السائدة.

- ينتقص من قيمة التنوع المعرفي.

- يخفي الحدود الدقيقة المائزة لأي علم واحد.

- يُفرز جهلا نسقيا داخل العلوم الاجتماعية، وحقول معرفية أخرى

تحدوحدوفلسفات العلوم الطبيعية.

اما من الناحية السياسية، فاعتبار العلم الغربي مثال الكونية يعد مجحفاً لأسباب كُثر:

- ينتقص من قيمة تقاليد معرفية مهمة وحاسمة لبقاء الثقافات الأخرى ، بل وقد

يسهم في طمسها.

- يقدم نموذجا رفيعا للانسان يعلو علي نظيره غيرالأوروبي وكذا على النساء

والفقراء.

- يضع السلطة المعرفية، والمفاهيم الدينية غير اليقينية في مكانه تعلو علي

المفاهيم الإنسانية، وذلك عبر النظم الاجتماعية الهريركية، وثلة من خبراء صفوة تملك

الحصانة إزاء كل أدوات النقد ومراجعة الاعتقادات. (٢٤)

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتاريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

وفى الأخير تؤكد فلسفة العلم بعد الاستعمارية على أن معايير العلم الحديث تتغير تاريخيا (بتغير التاريخ)، حيث تتغير معايير الموضوعية والعقلانية والمنهج من عهد إلى عهد ومن حقل إلى حقل داخل العلم، وكذا تتكامل المعايير الإبستمولوجية والأنطولوجية للعلوم مع الحقبة التاريخية المصاحبة لها، وعلى هذا تتحدى بعد الاستعمارية كونية العلم والمنهج العلمى الغربى وتبدع فى تفكيك الثنائيات المنظرة فى الرؤية الحداثية للعالم، وتدعوى النظر إلى انساق المعارف برؤية اخرى مغايرة للرؤية الحداثية، وهذا من شأنه أن يسهم فى بناء إبستمولوجيا مستجدة غيراستبدادية.

تسهم التاريخ بعد الإستعمارية التفاعلية الإبداعية فى بناء إبستمولوجيات راديكالية، تسفر عن طرق غيراستبدادية فى إنتاج المعرفة، تلك الإبستمولوجيات والميثودولوجيات الجديدة مهمة ومفتوحة للنساء والرجال علي اختلاف الطبقة والعرق والوضعية الثقافية ، كي يتشاركوا فى مشروع تحررى جمعى خلواً من إعادة إنتاج نماذج الهيراركية والاستبداد، وعدم المساواة بين شمال - جنوب، تلك التى كانت جزء لايتجزأ من ميراث التنوير.

وحل تلك المشكلات إنما يتأتى عبر تفكيك ذلك الميراث، وكذا تثمين الأنساق المعرفية المحلية (٢٥).

ولنا أن نلفت هاهنا الى أن شروط إنتاج المعرفة العلمية والعقلية تستدعى نمطا من العارفين، وأنساقا معرفية تختلف عن تلك الأنساق المألوفة لدي العارفين الخانعين، أولئك الذين كافحوا من أجل تعلم نسق معرفي واحد وحيد.

إذ تكشف فلسفات العلم بعدالتنويرية عن نماذج لأنساق معرفية أخرى ممكنة، حيث يتشكل الواحد منها عبر واقع الحياة اليومية، وواقع الممارسات العلمية المعاصرة ، والتي تتطلب عارفين اذكيا وأنساق معرفية ليست مكتملة. حيث العارفين - علماء أومواطنين - لديهم أنساق معرفية ليست مكتملة وعليهم صنع قرارات يومية، قرارات حياة - أو - موت، فجل العارفين الآن لديهم انساق معرفية كُثُر، ولنا أن نتأمل -علي سبيل المثال - الممارسات الصحية الثابتة واليومية للطبقة الوسطي فى الحواضر، حيث نجد الافراد يستخدمون عادة أنساقا معرفية متعارضة.

وهاهنا نخلص إلى قضية مهمة هى أن التنوع المعرفي قيمة علمية معتبرة.

وعلى الرغم من هذا، ثمة العديد من الناس يعيشون حيوات قصيرة بانسة، باتباع وصايا نسق معرفي محلى ومن بينها النسق المعرفي الغربي، أعنى العلم الحديث^(٢٦). وثمة حقيقة مهمة هي أن الثقافات المتغايرة تملك معايير علمية وابستمولوجية متغايرة، وهذا هو الإدعاء السوسيوولوجي التاريخي الواضح، وتلك المعايير تاريخيا وسوسيوولوجيا هي نسبية. لكن ليست كل الأنساق المعرفية تتساوي من حيث القوة والإحاطة بالجوانب المختلفة للطبيعة.

ثمة إذًا ما يدفع إلى اعتبار الشروط السوسيوثقافية جبل الجليد، المسهم في تشكل مسار المعرفة العلمية...

ذاك أن الشروط الاجتماعية والثقافية تُشكل مسار العلم والمعرفة العلمية، وتلك الشروط السوسيوثقافية تدنومن أن تكون جبل الجليد الذى يسهم فى تشكل مسار العلم ، ولنا أن نشير هاهنا إلى أن الدراسات الميكرو Micro studies تدعم تلك الحجة القائلة : "الشروط القبلية للثقافة العلمية كونية عامة، أما الشروط الاجتماعية والإقتصادية وغيرها، فهي وحدها التي تحدد في أي المواقع سوف يزدهر النشاط العلمى".

ونعنى بالدراسات الميكرو تلك التي تدرس الظواهر الميكروكالليزر والكوانتم، وتلك الدراسات لم تكن ممكنة فيما قبل هذا القرن.

فثمة التنام فيما بين البنية العلمية والشروط الواقعية، حيث تتوشج البنية العلمية بالشروط الواقعية (الاجتماعية والاقتصادية) ؛ حيث تمثل الممارسات العلمية الفعلية والتي تقوم بها الجماعات الصغيرة البنية الحقيقية للعلم، تلك الجماعات الصغيرة، والتي من بينها أعضاء المعامل وشبكات الإتصال الخاصة بالمشاركين أوالنظريين هي "جماعات خفية"، ويوابات رئيسة في أي حقل علمي، مثلها مثل الناشرين والمحكمين.

ومن ثم، تؤشر بحوث العلماء في الليزر وقوى الجاذبية على أن التفسيرات العلمية الدقيقة الخالصة مخترقة اجتماعيا.

وقد أسفرت الدراسات التي أجريت علي ميكانيكا الكوانتم - أيضا - عن نتائج مشابهة، بل يسعنا إعتبار النظرية العلمية نفسها تعددية الأبعاد Multi- dimensional، فضلا عن أن تأسيس النظرية العلمية قابل للتعديل، وقد تعني أشياء مختلفة لجماعات مختلفة من العلماء.

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتاريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

وكذا تؤثر دراسة ظواهر مادون الذرة Sub-atomic على أن العقلانية العلمية الصورية تؤسسها تعهدات اجتماعية. (٢٧)

وتفصح تلك الدراسات المهمة - أيضا - عن البنية الاجتماعية للحقائق العلمية داخل المعمل. وتلفت تلك الدراسات إلى أن الثقافة الفرعية Sub Culture للحقل العلمي ليست محض سياق، انها البحث نفسه.

ويمتد تأثير السياق الاجتماعى إلى الرياضيات، ففي عام ١٩٤٨ ظهرت دراسة عن سوسيولوجيا الرياضيات تزعم أن ثمة اساليب Styles متميزة في الرياضيات ، تتوقف تلك الأساليب على السياق Context، وهكذا تُطرح المشكلات وكذا الحلول داخل الحقل العلمي تحت تأثير شروط متغيرة من داخل وخارج الحقل العلمي. وعلي هذا تتطور فروع الرياضيات استنادا إلى شروط سوسيولوجية لامحض شروط علمية مجردة فحسب.

تمتد تلك الشروط السوسيولوجية لتشمل المجالات العلمية والنشر؛ فثمة ضغوط تحدث من قبل الاتحادات التي تمارس النشر العلمي، فكل جرنال علمي يتبنى نمطا خاصا به تحدده شروط إجتماعية ، كمساحة البحث وتواتر الجورنال، والسوق والنقابات المهنية والتاريخ الخاص بكل جرنال.

وهكذا تسهم الدراسات العلمية الميكروفي دعم الحجة القائلة:

الشروط القبلية للثقافة العلمية شروط كونية عامة، أما الشروط الإجتماعية والاقتصادية وغيرها فهي وحدها التي تحدد في أى المواقع سوف يزدهر النشاط العلمي. (٢٨)

وثمة تفحص آخر للشروط الاجتماعية للعلم، نلقاه داخل النقود النسوية للعلم ، حيث قام النقد النسوي بتشريح التاريخ العقلي للعلم الغربى، وكشف عن أن الجنوسة تهيمن علي العلم ، وذلك عبر هيمنة العلماء الذكور والميتافور الذكوري، ذاك أن العلم ذكوريا أبويا، وكذا ثمة وشائج قوية فيما بين العلم والرأسمالية. وقد طرح الخطاب النسوي تساؤلات تتعلق بالإرث الذى تسلمناه من افلاطون ونظريته في المعرفة، والمنهج الإمبريقي الخاص بفرانسيس بيكون، حيث رسخ المنظور الذكورى الأبوى لقهر الطبيعة لافهمها والإنصات إليها، بينما تسعى الرؤية النسوية لإستثمار الطبيعة لاقهرها وتتغيا غرس قيم الأمومة، قيم الرفق الأنثوى في صلب الممارسات العلمية والعلم الحديث.

لقد مهد الإنحياز الأبوي المائل داخل العلم - وفقاً لبعض التفسيرات النسوية - لنشأة التفسير السوسيوبيولوجي الذي أسهم في التأسيس لهيكلية الجنوسة والطبقة والعنصر.

فحين يبحث العلم عن الجزئ الأساس Master molecules، فإنه يفترض على نحو مسبق النموذج الهيراركي في الطبيعة، وكذا يستند العلم الأبوي الذكوري على التفكير الخطي Linear الكمي الاختزالي، ويفضله على طرق أخرى كُتُر في جمع المعلومات وتنظيمها.

وقد تم تأسيس صور Images المعرفة داخل التاريخ الفكري والعلمي الغربي على الجنوسة، ونلمح هذا أيضاً في حقول معاصرة كالذكاء الاصطناعي مثلاً. وكذا تظهر الدراسات التاريخية في اللغة وتحليل النصوص والمعطيات الإمبريقية أن الحقول المؤسسة على الفكر المنطقي الرياضي جنوسية Gendered، كما أن علم الجبر وافتراضاته ذكورية.

والنتيجة هي "موضوعية مُتوهمة" Phantom objectivity تتعامى عن بنيات بديلة في الواقع.

حيث تتأثر المعرفة بعلاقات الجنوسة Gender Relations، وعلى هذا، تغدوالمعرفة السائدة الآن معرفة منقوصة مجتزأة.

وإذا كانت خبرة المرأة تختلف عن خبرة الرجل، فإن الخبرة التي انبنت عليها المعرفة الاجتماعية والطبيعية هي خبرة إنسانية منقوصة جزئية، وذلك بوصفها خبرة ذكورية رسخها الرجل. وإذا افترضنا أن تلك الخبرة متحررة من الجنوسة، أي عند النظر الى خبرة الرجل على أنها الخبرة الإنسانية، فإن النظريات والمفاهيم والمناهج الناتجة عن تلك الخبرة تشوه الحياة الاجتماعية والفكر الانساني.

والحق أن المنظور الذكوري يعد شائها، لا لأنه جزئياً فحسب، ولكن لأنه يشق قلب إطرادات واقعية في الحياة الاجتماعية. من هنا علينا الشروع في تحديد تلك الخبرة التي يسعنا أن نؤسس عليها فهماً علمياً إنسانياً^(٢٩).

وتزعم الابستمولوجيا النسوية أنه ثمة علاقة فيما بين المعرفة والسياسات، وكيف أن الوضعية الاجتماعية لمنتج المعرفة تؤثر في المحصلة النهائية للمعرفة.

الإبستمولوجيا والتواريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتواريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

وهكذا تفصح الدراسات النسوية عن أنه ثمة شروط اجتماعية تُحدد وتشكل مسار العلم. ومن ثم يبدوالعلم ميدانا للكفاح الاجتماعى بما ينظر عليه من سلطة وعلاقات . وتلك العلاقات تسهم فى تحديد المشكلات المهمة، والمناهج المقبولة والمعرفة الصحيحة، وكذا ممارسات ونتائج العلم. وهكذا تحتك الكيانات الجيوسياسية ببعضها البعض ، وذلك على طريقة القشرة التكتونية فى الجيولوجيا أو جبل الجليد فى المناطق القطبية. فالعلم يمثل قمة جبل الجليد فقط، أما الاحتكاك والتفاعل أسفل القمة فمحتجب تماما، وعلى هذا يغدوالمجتمع بتاريخه وقيمه هوالبنية العميقة للعلم، ويظهر العلم كانعكاس خاص لديناميكية تلك البنية العميقة. (٣٠).

فإذا كانت تلك البنية تشويها العنصرية، سنلمس تنظيما عنصريا داخل العلم. والثقافات - أيضا - تُشكل مسار العلم : حيث تسهم الثقافات فى توجيه العلم وذلك بوصفها (صندوق الأدوات أو صندوق الغدة box's tall)، إذ تتنوع الخصائص والسماث الثقافية بتنوع البيئة المحيطة بها. فالذين يعيشون فى الصحراء أعلى ضفاف المحيطات ينتجون أنماطا متغايرة من المعرفة (والجهل).

وعلى هذا يختلف إنتاج المعرفة باختلاف المكان. فمن يعيشون فى الصحراء ينتجون أنماطا معرفية ، تختلف عن الأنماط المعرفية التى يتم إنتاجها فى بيئة أخرى، على ضفاف المحيطات مثلا (٣١).

ولهذا لايمكن أن تتسجم تلك الأنماط أوالنماذج المعرفية معا ، مثل القطع فى لغز الصور المتقطعة.

بل قد توجد فى البيئة نفسها - على شاطئ الأطنطلي مثلا - ثقافات مختلفة لديها اهتمامات مختلفة و متميزة بالمحيط، تنتج أنماطا مختلفة من المعرفة والجهل، وتتوقف على ما إذا كانوا يهتمون بالصيد ، أو تحلية المياه ، أو دفن النفايات فيه ، أو استخراج المعادن من أعماقه، أو استخدامه كطريق للتجارة.

فالثقافة هى التى توجه الانهمام العلمى، وعلى هذا ليس ثمة منهج علمى واحد وحيد، وعلى نحو عام، ليس ثمة مسلك واحد وحيد لتنظيم انتاج المعرفة يسعنا أن ننسب إليه شكول المعرفة الخاصة بنظام الطبيعة، والتى تنتجها الثقافات المتغايرة. ذاك أن مناهج البحث المثمرة هى التى تتنوع بتنوع أنماط التفكير الإنسانى والتنظيم الاجتماعى. (٣٢)

بيد أن أنساق المعارف المحلية ليست كلها سواء من حيث القوة. فالطب الحيوى الحديث مهم وناجز فى أعراض كُثُر، لكن الوخز بالإبر والتمرينات قد يكون لهما قيمة أكبر فى بعض الأعراض التي اهملها الطب الحيوى الحديث.

وعلى هذا، تؤشر فلسفة العلم بعد الاستعمارية على أن العلم الحديث محض نسق معرفي محلي، وأن التقاليد المعرفية للثقافات الأخرى أنساقا معرفية محلية أيضًا. وفى الأخير نخلص إلى أن : العلم الغربي علم حضاري.

ومن ثم، نحن بحاجة إلى منظور تاريخي مستجد للعلم، "منظور حضاري" **civilizational perspective** يسهم فى تقديم رؤية بعد - تاريخية **Meta historical** فيما يتعلق بطبيعة العلم، هذا المنظور يُظهر العلم الغربي الحالي بوصفه "علما حضاريا" **Civilizational Science**، اسهمت فى إبداعه عناصر إجتماعية وعناصر أخرى. وهوما يدعوالى القيام بالتقصي والتنقيب واكتشاف حضارات اخرى للعلم، وسنقف على حقيقة مهمة هى أن مفهوم الاستعارة كان حاسمًا لتطور العلم، وأن الشروط السوسيوثقافية كامنة فى بنية التطور العلمى.

- الإستعارة ... تلك الأم الحُبلى

يأتى الإبداع فى الحقول المعرفية عبر ترتيب عناصر ومفاهيم جديدة أو عبر إعادة ترتيب العناصر والمفاهيم القديمة بطريقة جديدة.

وبالوسع تشبيه تلك الممارسة بالطفل الصغير، حين يستخدم المكعبات أولبنات البناء لعمل شكل أو بناء يُفضله، ويعبر عن توجهه المعرفي فى الوقت نفسه ؛ فى حالة العالم، لبنات البناء هي المفاهيم.

وتأتى إعادة ترتيب المفاهيم حين يجلب الواقع وقائع جديدة لاتتوافق والبنية المفاهيمية القائمة، عندئذ تنشأ مفاهيم جديدة فى مخيلة المبدعين والمنظرين، وتأتى من مصادر متنوعة. قد يتم التقاطها من تقاليد عقلية سابقة فى الماضى. فعلى سبيل المثال، الفرض الجسيمي للمذهب الذري - تعود جذوره فى التقليد الغربى لديمقريطس- قد تم إحيائه على يد بويل، حيث قام بويل بإستعارته وإزاحة رؤية ارسطو، التي كانت تعارض المذهب الذري. (٣٣)

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتاريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

وقد انتقل جاليليو - بطريقة مشابهة- من التقليد الارسطي إلى التقليد الخاص بأفلاطون، أي إنتقل من العلم الوصفي لدى أرسطو إلى العلم البنيوي Structural لدى أفلاطون.

ويقدم علم الفلك مثالا آخر، آلا وهوروية لا بلاس الخاصة بحركة النظام الشمسي، حيث اعتقد لابلاس أن ما يسمى بالنظام الشمسي Solar System ليس سوى نتيجة نجمت عن إنفجار سحابة ترابية كبيرة وقعت تحت تأثير مجال جاذبية ما. تلك النظرية أزيحت، فيما بعد، علي يد آخرين، كانوا قد إعتقدوا أن الكواكب تشكلت عبر مرور نجم ، كان قد التقط شيئا من المادة الشمسية، وفي العقود الحديثة عادت رؤية لابلاس مرة أخرى إلى الحياة، أوتمت استعارتها مرة أخرى، حيث تؤكد بالفعل أن النظام الشمسي تكون نتيجة لانفجار سحابة ترابية كبيرة وقعت تحت تأثير مجال جاذبية ما. وسواء كانت المفاهيم تتدفق من الماضي، من حقول علمية أو عبر ثقافات أخرى، فتلك المفاهيم تتخلق فى رحم الاستعارات Metaphors.

إذ المعرفة بالعالم تتقدم تدريجيا عبر الإستعارة، والتي بالوسع اعتبارها الصيغة الأساس والأم الحُبلي Pregnant mother للعلم ولكل فكر إبداعي.

فالمبدعون فى الحقول المتميزة، سواء كانوا شعراء أو علماء هم استعاريون Metaphorists.

إبداع المفاهيم عبر الاستعارة جزء أساس فى التفكير العلمي، فضلا عن أن صوغ المفاهيم فى العلم تدنومن أن تكون معالجات استعارية metaphoric process^(٣٤) وقد يحدث أن تنتقل السمات والخصائص - على نحو غير مباشر - من حقل إلى حقل آخر مغاير بالكلية، فالإستعارة من شأنها أن تسهم فى فهم وتفسير مالا تملك المقاربات والتناولات الماثلة تفسيره .

الإستعارة يسعها ان تؤلف فيما بين عناصر متنافرة مختلفة ، وكذا يسعها أن تقدم اجابات فرضية تسبر غور المشكلات، أو تلقي ومضة تنفذ إلى فئات واشياء تمت ملاحظتها داخل فروع أخرى.

بوسع الإستعارة خلط المؤلف بغير المؤلف، ورصد التشابه والإختلاف فيما بين الجديد والقديم، تنفذ الإستعارة داخل الفروع والحقول العلمية .

تملك الاستعارة العابرة للحقول المعرفية قوة، وتلك القوة من شأنها أن تسهم في العلم الحديث بشكول كثر، عبر تقوية البنية الاجتماعية للعلم، وذلك بوصفه علما يتقدم مدفوعاً بقوي اجتماعية عدة.

وقد كانت الإستعارة ناجزة في اتصال الأفكار داخل العلوم الطبيعية، مثلما كانت في الشعر.

ويسعدنا أن نلفت هنا إلى أن الإستعارة متأصلة في النظريات العلمية، وكذا النظريات العلمية متأصلة في الاستعارة. وثمة أمثلة صريحة وضمنية فيما يخص الإستعارة داخل العلم، ومن بين تلك الأمثلة - على سبيل المثال - إستعارة الجنوسة.

إذ تختلف إستعارة الجنوسة عن الاستعارة من الفروع الأخرى، والتي من بينها إستعارة العقل في العلوم الفيزيائية. حيث هيمن الميتافور الذكوري على العلم. وأظهر الهستروجرافي النسوي عبر تحليل النصوص وكذا المعطيات الامبريقية ، أن الفروع العلمية التي يغلب عليها التفكير المنطقي والرياضي جنوسية، وأن التفكير الصناعي ونماذجه وافتراضاته تتبني الفهم الذكوري، الأمر الذي يفضي إلى موضوعية متوهمة، فيما يتعلق بإنتاج المعرفة ، وذلك عبر حقول معرفية تتعامى عن بنيات معرفية بديلة في الواقع.

وكذا انتقلت الإستعارة من البيولوجيا إلى فروع معرفية أخرى، حيث قارن كلارك ماكسويل وصف فاراداي للأنابيب الواقعة تحت تأثير القوى الكهرومغناطيسية بعضلات الجسم البشري، حيث تضيق الأنابيب وتتسع ، وتنقبض وتنبسط مثلها مثل العضلات. وعلى نحو مشابه نلقى الرؤية الرياضية الميكانيكية للعالم، والتي تشكلت مع بدايات العلم الحديث، قد أسهمت في تحديد علاقات انتاج السلع والتبادل التجاري ، حيث توائم فيما بين تلك العلاقات الاجتماعية الخارجية ومحتوى العلم. وقد كست المفاهيم الرياضية القديمة مغزى جديداً.

وكذا تُظهر المادة الأرشيفية أن داروين كان يعي أن اللغة والأفكار السائدة في محيطه الثقافي، تسهم اسهاما حاسما في عمله العلمي ، حيث تأثر منهجه على نحو عميق، بالمدرسة الواقعية في الفلسفة داخل اسكوتلاندا. وعبر تلك الروافد وغيرها أبدع استعارات نابغة من بصيرته. وبينما كانت المصطلحات التقنية تدومن أن تكون منعومة، عمل على صوغ افكاره في صورة إستعارات.^(٣٥)

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتاريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

وقد تواشج الكمبيوتر - منذ البدايات - بالإستعارة، حيث تم إقتباس أحد وظائف الكمبيوتر عبر عملية تقسيم العمل فى المنشآت الصناعية، وهى إحدى الإسهامات التى قدمها آدم سميث لعلم الإدارة بشأن تنظيم الإنتاج فى المنشآت الصناعية. وأسهمت الإستعارة من علم النفس فى تصميم الكمبيوتر والعكس بالعكس. ففي عام ١٩٨٥ قدم تقريراً يتضمن ثلاثة وستين مشروعاً فى علم النفس، وكانت اغلب الإستعارات الواردة فى النصوص مستفاه من تكنولوجيا الكمبيوتر، لكنَّ العديد من مصطلحات الكمبيوتر كانت مستعارة بالفعل، وذلك لأن نظام الكمبيوتر إستعار العديد من الإستعارات من علم النفس.

إذ تؤثر الأنماط المشتقة من العقل تأثيراً قويا على جمع الأنظمة، ليس فقط فى الكمبيوتر ولكن فى حقول أخرى عديدة، حيث كان ذلك واضحاً فى حالة ترابط الأفكار، هذا على الرغم من أن حقائق تداعى الأفكار كانت معروفة فى مؤلفات كتاب سابقين على جون لوك ومن بينهم القدماء، كما افلاطون وارسطو ومفكرين آخرين كتوماس هوبز.

وقد تأثر دافيد هارتلى (١٧٤٩) بجون لوك. حيث أسهم هارتلى فى تطوير نظام سيكوفسيولوجى، مزج فيه ترابط الأفكار بالاهتزازات الجسيمية للجهاز العصبى.^(٣٦) وفى الأخير، نخلص إلى حقيقة مهمة ألا وهى أن الإستعارة متأصلة فى العلم، وعلى هذا العلم الحديث علم حضارى.

العلم الحديث "علم حضارى"

لقد عزفت التقارير التاريخية الداعمة للمركزية الأوربية عن النظر إلى الجذور غير الأوربية للعلم الحديث، وعن الإستعارات المأخوذة من الثقافات غير الأوربية، وقللت من قيمة تقاليد العلم والتكنولوجية.

وكانت تلك التقارير تقدم الثقافات الأخرى بوصفها محض معتقدات دينية وخرافية بشأن الطبيعة، وكذا تزعم أن الثقافات العليا كثقافات الإسلام وشرق آسيا، لم تسهم سوى إسهامات ضئيلة للتاريخ الأوربي.

والحاصل أن العلوم الأوربية قد إستعارت إستعارات ضخمة، وجد مهمة لتطور العلم الحديث، وعلى نحو أقوى مما أجمع عليه المؤرخون.

ولم تكن الثقافات الكبيرة المعقدة، كثقافات الصين والهند والثقافات الأخرى فى شرق آسيا والمجتمعات الإسلامية هى المصادر الثقافية الوحيدة للعلم الغربى، بل ثمة

الثقافات الأقل تعقيدا كتقافات افريقيا وامريكا - ما قبل كولومبس Pre-Columbian Americas وغيرها، والتي واجهت الأوربيين أثناء رحلات الكشوف البحرية .

وكان التراث العلمي والرياضي اليوناني قد تطور في الثقافة الإسلامية، وراحت علوم عصر النهضة الأوربية تنسبه إلى أوربا. وكذا نلمس أن بعض التقاليد المعرفية المهمة والمكتملة داخل العلم الحديث، لم يتم الاعتراف بها بالكلية، مثل مبادئ الزراعة لدى امريكا ما قبل - كولومبس والتي قدمت البطاطس لأوربا ما أسهم في التأثير علي التغذية اخل العالم الأوربي وعلي تاريخ أوربا التالي.

هذا فضلا عن الإنجازات الرياضية للهند والثقافات العربية، والتي قدمت إسهامات أخرى، كالإبرة المغناطيسية، والدفة Rudder وتقنيات أخرى، كانت أساسية للأوربيين ولتطور العلم الحديث.

آلا تعد كل تلك الاستعارات المهمة جزءا من الإسهام العلمي؟

ليس ذلك فحسب، فقد إستعارت أوربا المعارف الجغرافية المحلية، والجيولوجيا، والطب، والفارماكولوجي، والزراعة، والملاحة، والحيوان، والنبات، وغيرها من الثقافات المحلية التي أسهمت في تشكيل العلوم الاوربية^(٣٧).

وبعد كل ذلك، آلا يحق لنا أن نلفت انتباه المؤتمرات المتخصصة، وبرامج التبادل الدولي إلى حقيقة مهمة، وهي أنه يحق لكل فرد أن يستعير انجازات الآخر، أي فرد آخر، ودون تلك الإمكانية تذبل العلوم وتفقد قدرتها الإبداعية.^(٣٨) يفقد العلم قدرته الإبداعية إذا لم تكن ثمة امكانية أن يستعير كل منا انجازات الأخر.

ويغدوالعلم أفضل - وفقاً لمعاييره الخاصة - إذا تبني التعددية الثقافية، أي التعددية الإثنية والجنوسية للعلماء. وذلك لأن الأقليات والنساء داخل مجتمع العلماء سيكونون أكثر استعدادا لادراك كذب واجحاف افتراضات العنصر والجنوسة التي تفسد النظريات، كما أن التغيير الذي سيطراً علي المجتمع عبر تبني التعددية الثقافية سيسهم في كشف تلك الافتراضات المجحفة المختبئة.

وعلى هذا لنا أن نلفت إلى أن إنفراد الذكر الأبيض الغربي بالعلم ، من شأنه أن يفقر العلم، وكذا الاعتقاد بأن إقصاء الآخرين سيسهم في تحسين محتوى العلم، ويضمن

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتاريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ -

موضوعيته من شأنه أيضا أن يفقر العلم، وبإختصار، التعددية الثقافية سجية معرفية (حيث البحث عن الحقيقة ينبغى أن يكون مصاحبا للبحث عن العدالة). (٣٩)

وإذ تؤثر التاريخ والدراسات بعد الإستعمارية للعلم على أنه ليس ثمة عنصر داخل العلم مستثنى من التشكل الثقافي ، وكذا فيزياء أواخر القرن العشرين، نلقى الدراسات الاثنوجرافية للتقاليد العلمية والتكنولوجية غير الأوروبية، تتبنى الدعوة إلى معالجة كل الأنساق المعرفية على أساس من التكافؤ الإبستمولوجي، ومن ثم ليس ثمة ما يدعوا إلى أن نلتفت إلى الإختلافات الإبستمولوجية المألوفة فيما بين المعرفة الصحيحة وبين المعتقدات الثابتة.

على أن التاريخ والدراسات بعد الإستعمارية لاتنكر أن بعض أنساق الاعتقاد كانت أقوى وأكثر قدرة على التأثير من غيرها، لكن ما تنكره هو أن شروط تلك القوة تكمن، أو يمكن إكتشافها فقط في السمات الإبستمولوجية الداخلية الخالصة، والمتمثلة في عقلانية راسخة، ومنطق وحيد للتبرير، والمنهج ، والموضوعية.

وعلى هذا، نحن بحاجة إلى منظور تاريخي جديد للعلم وكذا حقبة تاريخية جديدة. نحن بحاجة إلى حقبة تاريخية جديدة يفتح فيها العالم، وإذا كانت عوالم الأفكار في أوروبا قد تلاقت معا والتئمت في مزيج نشط جديد، حيث تواشج عصر النهضة بالتنوير والكشوف الجغرافية.

الآن مزيج نشط جديد ممكنا.

وعبر الإختراق النافذ الذى تمارسه العولمة، ليس ثمة مجال لوجود مركز يسلك فى المستقبل بوصفه مقاصة المعرفة العالمية. دور المركز المهيمن العابر للحدود قد تآكل بفعل الاتصال ونشر المعلومات وا رتحال المعارف عبر الشبكة الواسعة.

حيث تفتح العولمة مراكز كثر تفلت من قبضة مكان مركزى واحد، صوب التحول نحو الشبكة الواسعة (تفاعل المترددى على الشبكة الدولية). وستسهم فى تشكل جماعات أكاديمية عبر العالم. وثمة بحوث تاريخية جديدة تتنامى عبرالعالم، تنثر الدرر المختبأة، وها هنا يسعنا أن نلمس إسهامات داخل العلم من مصادر حضارية مختلفة ، وذلك بفعل تلك العولمة(٤٠).

وعلى هذا ثمة دعوة إلى إعادة إكتشاف الفلسفات الآسيوية - على سبيل المثال - والتقليد البوذي على نحوخاص، والذى قد يغدو بمثابة عصر النهضة الثاني A second

Renaissance في التاريخ الثقافي الغربي، بل قد يكون مساويا في الأهمية لإعادة اكتشاف الفكر اليوناني في عصر النهضة الأوروبية.

وثمة تحالف إستراتيجي فيما بين المقاربات النسوية، والمعارف -الإثنية - ethno knowledge، ومعارف الحضارات الإقليمية Regional Civilizations آخذ في الإلتئام. وفي ثانيا تلك الجهود المتواشجة ثمة نتائج البحوث الإنسانية للألفيات، والتي افتقدتها الرؤية الأور- أبوية Euro - Patriarchal ، حيث يمكن بعثها. وسوف تسفر عن علم عولمي Global Science ينتهج التعددية الثقافية بوصفها حقيقة. ودونما أدني شك، سيغدو نسق المعرفة أقل شوفونية، حيث نسعى لتحطيم الجمود المتنامي عبر القرون القليلة الأخيرة.

لمن نمهد المعارف الحضارية؟... لنا جميعا. (٤١)

الإبستمولوجيا والتاريخ بعد الإستعمارية. هل ثمة دور للتاريخ بعد الإستعمارية فى الإبستمولوجيا؟ —

خاتمة

تستشكل التاريخ بعد الإستعمارية التأريخ التقليدى للعلم والتاريخ الداعمة للمركزية الأوربية، ما أسهم فى تفكيك أفق ذاك السرد التقليدي أوالتاريخ التقليدي للعلم، والتحول إلى التاريخ التفاعلية العولمية، وذلك بوصفه تحولا من التاريخ الانعزالية إلى التاريخ التفاعلية الكونية، وإلى التفسيرات الإجتماعية لميلاد العلم الحديث، تحول من قولة كبلنج : الشرق شرق والغرب غرب ولايمكن أن يلتقيا إلى قولة مغايرة هى " التدفق المتقاطع والتقاء الشرق والغرب" ، ومن المركزية الأوربية إلى التعددية الثقافية، ومن شرط الكونية إلى رحابة الخصوصيات الثقافية والأنساق المعرفية المحلية، ومن غمات المركزية الأوربية الى المنظور الحضارى للعلم حيث المعرفة العلمية- فى الأساس- معرفة حضارية.

وبالوسع النظر إلى العلم الغربى الحالى بوصفه علما حضاريا، تأسس على تعددية حضارية وتعددية ثقافية، وتشاركت صنعه حضارات وثقافات كُثر، وقد غدت قضية التعددية الثقافية الآن تدنومن أن تكون كفاحا عولميا، وهومايعد طعنا فيما يسمى بصراع الحضارات. وعلى العكس يأتى التنام الحضارات وتناغمها بديلا عن تصارعها، وتغدوالإبستمولوجيا أداة مهمة لمواجهة وتفكيك كل شكول الهيمنة، والتي من بينها العنصرية والطبقية والجنوسة والسلطة الإبستيمية التى تأسست على الإمتياز الإبستيمى. إذ البحث عن الحقيقة ينبغى ان يكون مصاحبا للبحث عن العدالة.

وكذا يسهم المنظور الحضارى للعلم فى مد الجسور بين الحضارات والثقافات والهويات، وبين الشرق والغرب، والأنا والأخر.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن التاريخ بعد الإستعمارية للعلم قد راحت تسهم فى استشكل الحداثة الغربية، وفضح زيف دعاوى المشروع الحداثى والمشروع التنويرى الغربى، ذاك الذى تواتشج بالإستعمار والإبادات الجماعية، وطمس الهويات الثقافية للشعوب المستعمرة المستهدفة فى ثقافتها، حيث غدا التنوير مغالطة، وغموض مطبق، إنه التنام البصيرة والعماء، المعرفة والجهل، الحقيقة والوهم.

فهلا أسهمت الممارسات العلمية فى خلق عالم...عالم بعد استعمارى حقيقى يتبنى التعددية الثقافية والتعددية الإنسانية؟

المراجع :

- 1) Sandra Harding, is science multicultural? postcolonialisms , feminisms , and epistemologies , indiana university press , 1998 ,p 38
- 2) susantha goonatilake: toward a global knowledge , mining civilizational knowledge, indiana university press. 1988, p. 2
- 3)- MOTI BEN-ARI, Just a Theory: Exploring the nature of science, Prometheus Books, 2005, p.116
- 4) Sandra Harding, Gender, development, and Post-Enlightenment Philosophies of Science, in Decentering the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist, Indiana university press , 2000 , p.252
- 5) Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilizational Knowledge, p.14
- 6) Ibid.p.14
- 7) Ibid.p.15
- 8) Ibid.p.15
- 9) Sam Anderson, Science, Technology and Black Liberation, in the Radicalisation of Science,the Macmillan press , P. 120
- 10) Ibid.p.120
- 11) Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilizational Knowledge, p.14
- 12) Sandra Harding, is Science multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies,p.32
- 13) Ibid.p.33
- 14) Bill Ashcroft, Gareth Griffiths and Helen Tiffin, Post- Colonial Studies the Key Concepts , Rutledge, 2000 , p.238
- 15 Sandra Harding, is Science multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies,p.33
- 16) Sam Anderson, Science, Technology and Black Liberation, in the Radicalisation of Science, P. 128
- 17 Sandra Harding, Gender, development, and Post-Enlightenment Philosophies of Science, in Decentering the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.253
- 18) Bill Ashcroft, Gareth Griffiths and Helen Tiffin, Post- Colonial Studies the Key Concepts,p.145
- 19) LORRAINE CODE, HOW TO THINK GLOBALLY:Stretching The Limits Of Imaginations, , in Decentering the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.68
- 20) Ibid.p.69
- 21) Sandra Harding, Gender, development, and Post-Enlightenment Philosophies of Science, in Decentering the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.252
- 22)Drucilla k.Barker , Dualisms,Discourse,and Development , in Decentering the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.178
- 23 Sandra Harding, is Science multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies,p.56

- 24 Sandra Harding, Gender, development, and Post-Enlightment Philosophies of Science, in Decentring the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.253
- 25 Ibid.p.253
- 26 Drucilla k.Barker , Dualisms,Discourse,and Development , in Decentring the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.186
- 27 Sandra Harding, Gender, development, and Post-Enlightment Philosophies of Science, in Decentring the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.254
- 28 Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilizational Knowledge, p.19
- 29 Ibid.p.19
- 30 Sandra Harding, Discovering Reality,Feminist Perspectives on Epistemology, Metaphysics, Methodology, and Philosophy of Science, D. Publishing company , 1983 ,Introduction.p.x
- 31 Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilizational Knowledge, p.21
- 32 Sandra Harding, Gender, development, and Post-Enlightment Philosophies of Science, in Decentring the Center, Philosophy for Multicultural, Post Colonial, and Feminist,p.249
- 33 Ibid.p. 250
- 34 Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilizational Knowledge, p.21
- 35 Ibid.p. 23
- 36 Ibid.p.248 , 249
- 37 Sandra Harding, is Science multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies,p.35
- 38 Ibid.p.36
- 39 Ann Cudd, Multiculturalism As Cognitive Virtue of Scientific Practice, in Decentring the, Center Philosophy for Multicultural, Postcolonial, and Feminist,p.299
- 40 Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilizational Knowledge, p.257
- 41) ibid. p ,258